

# الكتاب الأَسود



أَسْمَاءُ العنقاء

مجموعة  
قصصية



مجموعة قصصية : الكتاب الأسود

تأليف : أسما العنقاء

تصميم الغلاف : أحمد صلاح زردق

تنسيق داخلي : عصير الكتب للنشر الإلكتروني

" الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب

ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار " ..

جميع الحقوق محفوظة C

عصير الكتب للنشر الإلكتروني



# الكتاب الأسود

لـ

أسما العنقاء

إهداء ..

بسم الله

الصديقة الغالية أسما ،

أشرفت كلماتك بأفئدتنا، بيد أن سناها أكبر من أن تحتويه  
قلوبنا فقط ، وأعمق من أن تجول بنفوسنا؛ لذا أهديتك  
حريةً لنبض أحرفك ؛ عليها تُشفى من أغلال الواقع ،  
وتصبح ملجأ لمن طرحت الأيام بقلوبهم آهات لا يشعر بها  
إلا من هم مثلك ، عليها تصبح هداية للضائعين ، تمامًا كانت

عامك سعيد أيتها الوردة.

أختك ..... إيمان

بوح ..

يظن البعض أننا نقرأ ونكتب ترفاً ، بينما نحن ننقب بين  
الكلمات عما يرأم صدوع أرواحنا ، فعند كل سطر نتوقف  
لهنيهة عل بعض الذكريات تعلق على مشجبها ، وعند كل  
نقطة نرجو طياً لصحف أشواقنا ، نعم...نحن الذين اعتدنا  
المسح على جراحنا بمداد أبجديتنا لعلها يوماً تبرأ !

.....أسما العنقاء

## الكتاب الأسود .....

انتصف نهار يوم شتوي شديد البرودة ...صوت ارتطام  
قطرات الغيث علي بلور نافذة حجرتها ...هناك علي ذلك الكرسي  
المتهاك تقف تجاهد لتظل واقفة دون أن تسقط.

تتناول الحبل بكفها وتلفه حول ذلك الطرف الحديدي المعقوف  
المتدلي من سقف الحجرة، تثبته جيدا تطيله حيناً وتقصره حيناً ،  
أناملها ترتعش رهبة وبرداً وأحداقها تناظر ذاك ،،الكتاب الأسود،،  
الذي يقبع في منتصف منضدتها القديمة البالية في ركن حجرتها  
الموحشة، كتابٌ غلافه القاتم مهترئ، وصفحاته بعضها وكأنها  
تحاول الهروب من بين حناياه، مخضبةً بحبر رسائلها إليه...

تعود لتكمل مابدأته، تبدأ بتثبيته على ذلك الطرف الحديدي  
بالعقد...

العقدة الأولى تشدها بقوة وثبات تذكرها بأولى رسائلها  
في ذاك الكتاب...

"اليوم أخبرت أمي كم أمقتها... كم هي سيئة وكيف أنها لا تصلح  
أن تكون أما... أجابتنني أمي بصوت متهدج وملامحها يعتليها  
الوجوم..

\_ لو كنت أعلم أن هذا الرحم { وتضرب بطنها بكفها بقسوة } سينجب مسخاً مثلك ما أبقيتك داخله يوم!! "

### العقدة الثانية ورسالتها الثانية..

" أبي ذاك الغريب البعيد... كل ما أذكره يمناه والعقاب، وعينان تداعب ألقهما القسوة، ولمحة تلك الهزيمة على وجهه والتي لم أفهم يوماً كنهها، لا أذكر حديثاً بيننا يوماً... لم نتحدث سوي بلغة العقاب!! "

### العقدة الثالثة... برسالة جديدة...

" شقيقتي الصغرى.. لطالما كانت تأكلني الغيرة منها ومن حسن خلقها وتعاملها مع كلاهما، كانت الأثيرة وأنا المقيتة .. لا أذكر أنني كنت حانية عليها يوماً أو حتى ابتسمت بوجهها لطالما تسببت لها بالمشاكل والعقاب .. ههه كنت السيئة الشيطانة الصغيرة... "

### العقدة الرابعة... ورسالتها الرابعة...

" ظهر بظلمة أيامي كنجم ألقى سناه فامتلت ضياء، وروي ظمأي للحياة ...

عشقت اهتمامه، قربه، ودلاله لي.. كلماته التي أحيت موت كياني.. رمست العقل والمنطق.. وأدت الواقع والقيم والعادات..

صحبتة بكل مكان.. وتبعته دون أي سؤال.. فعلت له ما أراد..  
وكأنني خلقت لأكون دميته المطيعة... "

### العقدة الخامسة ...

أخذت تشد عليها بقوة وأسنانها تصطك ببعضها، عيناها  
شاخصتان كما الموتى... ورسالتها الخامسة وقبل الأخيرة..

"إلي ذاك القابع بين حناي، إلي نطفة الخداع والكذب  
والخدلان... إليك يا من أصبحت تسكنني وأرفضك.. يامن تحادثني  
بصوتي وبت أنظر بعينيك لكل ما حولي.. إن أبقيتك قتلتك.. وإن  
قتلتك صدقتني أرحتك!!

سنرحل معاً، يدي بيدك.. روعي بروحك... ودمي سيتجمد  
بجسدك.. سنرحل أنا وأنت بعيداً معاً..

تخبرني أمي دوماً أن قتل النفس كفر.. حرام ويسوق للنيران..  
أجيبها

\_ ماما لا يكلف الله نفساً إلا وسعها... فتصمت.. وتمردي داخلي  
يصرخ!! "

أنهت العقد وبقيت آخر رسائلها إليه... ربما ستتلوها وهي تزين  
جيدها الغض بهذا الحبل.. ليحتضنها ولا يتركها بل هي من  
ستغادره .. تتساءل بتعجب... ما كانت رسالتي الأخيرة؟؟



تلبستها الرهبة وسكنها الذعر وهي تحاول جاهدة تذكر رسالتها الأخيرة ولكن عبثاً وكأنها سقطت سهواً من ذاكرتها الملعونة.. ضربات قلبها تزلزل كيائها حتى استشعرت تمايل جسدها الضعيف الواهن علي ذلك الكرسي، ارتعشت أوصالها وارتعدت فرائصها وترجلت عن كرسيها هاربة من مقصلة الموت..

من دقائق فقط كانت تبدو حياتها عبثية، درباً من أوجاع وعذابات كان شعارها \_ الموت هو الخلاص \_ فكرة الرحيل المفاجئ الآن يخلع قلبها من بين ثنياه ... أشرعت نافذتها ومالت برأسها للأمام عل السماء اللامتناهية تمتص من فكرها علقم الذكريات عليها تبادل إعصار أوجاعها بغيث من رحمت...

ترتطم قطرة مطر باردة بوجهها لتتحول لعبرة حارقة تشق طريقها على وجنتيها دون حياء...

تعود أدارجها وتشرع صفحات كتابها الأسود لتقرأ آخر رسائلها والتي كانت لها...منها لها!!

" أعلم أنك حمقاء جبانة لم تفعلي يوماً ما أردتِ دوماً تسوقك يد الأقدار... دوماً تحومين في فلك الضعف والخوف والخواء..ستبقين دوماً علي هامش الحياة..."

سيلفذك من يسكن حناياك قبل أن تلفذك الحياة.. مايبقيك الآن سينهيك يوماً ما!! "

في المساء حجرتها غارقة في الظلام..والحبل مازال يتدلى من السقف بخمس عقد معقودة كما يجب...وكرسي متهالك شهد قصة تناقض ما بين إصرار علي الموت وتشبث بالحياة... وهناك

في الركن البارد جسد غض فارقته الروح المعذبة يفتersh  
الأرض، ومعصمين حُزًا بعمق... وكتابها الأسود ما زال علي  
المنضدة القديمة... وفي أولى صفحاته كتبت....

\_ هذه رسائلي لطفلي.. الذي يوماً لن يولد \_

\*\*\*\*\*

## بين عالمي وأنت .....

هنا أنا وفنجان قهوتي وبضع أقراص مسكنة، فالصداع  
يصول ويجول وكأن هذه الرأس موطنه، قهوتي ورشقاتها المرة  
تهمس لي:

\_ أتمتعين من قبح هذا العالم؟ تحاربينه بقلبٍ صغير وعقل  
اصطلى جنباته العتة، فما بالك تستعذبين علقمي بل وتقسمين أنه  
يوردك جنان الجدل ويرفع عنك الحزن والهم؟!!

تلك الصموتة الكلماء أعشق وقاحتها وجنون أفكارها القاتمة، بعد  
برهة يتناهى صوت خفوت مصدره عدد لا بأس به من الكتب  
المسجاة فوق طاولتي، لا غبار يعلو سطح آخرهم فأنا اعتدت كل  
يوم تفحصهم، محادثتهم، مدحهم وذمهم، ثم تجاهلهم!

ذلك الهرم في البيت المجاور ما يزال يغمز لي بعينه بوقاحة،  
وزوجته تمط شفتيها غيظًا ثم تمطرني بشرر نظراتها الساخطة،  
وكعادتي أرمقهما شزرًا حتى إذا ما ابتعدا قهقهت كالمخبولة..

أخي يتلصص على ابنة الجيران من الشرفة، يرتقب منها  
نظرة، فكل من في الحي يعلم ما يلعب داخله من ولهٍ إلا هي  
ووالديها، هي تحلم بالسفر وأكوام من الملابس الجديدة الباهظة،  
وقصر وطن ربما من الذهب .. هي تريد ثري يا ابن والداي !

أما أنا فيمر يومي وأنا أبحث بين العالمين عنك، في حكايا جدتي  
ودعوات أمي.. أبحث عنك في قلوب سواي ولمعة عيون الصبية  
بالطرقات، أبحث.. وأبحث وما مسني لغوب وما جنحت لليأس..

تارةً ظننتك سكنت القمر وتاراتٍ خيل لي وجهك موشوم في  
حدقتي؛ ثم إذا ما حددت النظر تلاشي واندرثر!

وأحايين كثيرةً أقسم أن صوتك ينادي عليّ :

\_ أن اصنع طريقك بذاتك ولا تنتظريه من أحد..

أمازج كل ما يمر بيومي وأخلق منه حالةً لا تروى ولا  
تدرك، أشد خطاي مساءً لجنتك حيث أودعت ما بقي لي منك هناك  
وشيدت فوق رفاته صرحاً يخطف اللب ويفتن الأفئدة، هذه  
قطرات قهوتي جعلت منها مداداً أسطر به كلم ولد من رحم تلك  
الكتب المنسية، أخط لك رسالة آسية ..

""السلام على من سيبقى خالداً بالروح وإن أفنى الموت الجسد  
وغيبه ...أما بعد...

قهوتي تزداد مرارة وكلما أوغل بيننا الفراق أزداد بها تعلقاً..

ذلك العجوز يغازلني كعادته وأنا أمقته أضعافاً وزوجته!

أخي لا زال يحب ابنة الجيران وهي حتى الآن لا تبصره !

أرهقت أنا بحثًا عنك لم لآن لم تأتِ؟!!

جدتي كل حينٍ تقص علي خبر تلك الحرب، أمي تقول أنك ذهبت  
هناك وما رجعت، إذا ما أسلمت لما يقولون، فأنت يومًا لن تعد!!

وأنا لا زلت عنيدة غيورة لا أقبل أن تحتضنك حبات الثرى أو  
يغيبك عني أيًا كان، يغضبون مني إن أبنت أسى لفرقائك، فذاك  
يصرخ بي:

\_ يا أنتِ .. لقد مات!

أحمق هو بل جميعهم مسهم داء الحمق وأعياني منهم الملام،  
ياراحلاً دون وداع، وهاجرًا قلبًا خفقاته تبثك شكاة الاشتياق، أما  
آن أن تعود، أو أن ترسل طيفك لربوع أحلامي فيهدد الوجد  
الملتاع، وعدًا سيظل بابي مشرعًا بوجه رسالتك وإن كان حاملها  
الموت فأنا لجوارك التواق ""

\*\*\*\*\*

## إجهاض نص .....

كان الكاتب عجولاً، قرر أن ينهي قصته بانتحار بطلته، أنا  
كنت ممتعضة، صرخت بوجهه:

\_"ماكان عليها أن تنتحرا!"

بتكاسلٍ عقب ... " هذا ما كان يلانم الحكمة! "

استفزني رده \_دومًا هناك مخرج\_ عاجلته...

كان يجب عليها أن تجنح للعقل لا أن تتمادى بالحمق!

حاولت أن أشرح له كم الحلول التي لاحت بفضاء عقلي  
كلما استحكمت عليها الأمور وغلقت عليها الدائرة، لكنه أجبرها  
أن تسلك دربًا يشي بسذاجتها، أشار بطرف بنانه فتراءت لي كما  
تخيلتها، دنت مني بأطرافٍ متراخية ورأسٍ متناقل ..تمتمت  
بصوت يشبه فحيح الأفعى:

\_"لست نادمة، وإن عدت مجددًا سأعيدها!"

**صدقت!!**

قرأت الصفحات عدة مرات وكل مرة أرتجي أن يتبدل  
الحال، لكن الأمور تتكرر بحذافيرها، أتراه المذنب أم هي  
المستسلمة؟

\_\_ ماذا لو تمردتِ على كاتبكِ وفعلتِ الصواب منذ بداية الأحداث؟ " أنا سأللتها" .

صرخ بي مستنكرًا:

\_\_ أنتوين أن تفسدي علي أحداث القصة؟!!

حرك كفه فتلاشت المنتحرة!

ياله من كاتب متعطرس، يخشى إجهاض نصه إذا ما واعمه والمنطق، كيف لي أن أكرم سخطي عليه، وكيف أتعاطف مع الأخرى...

أعلم ذلك المتحذلق كم من مخرج خلقته لبطلته بينما أنهكها تيهًا وسلبية!

قلبت الصفحات وبكفي صفت إحداهن قائلةً:

\_\_ هنا تمامًا حينما انتوى هجرانها أول مرة... كان فرضًا عليها الرحيل دون عودة، بينما أنت جعلتها تنثيه عن فعله باستعطاف قلبه \_ تناولت قلمي\_ وأطرت عبارةً مافتأت ترددها :

"أن لا!! فلا طاقة لي بهجرانك ..."

الفكرة كانت تموج في عقله، والأفكار لا تموت أيها الجهبذ بل تتكاثر لتصنع مستعمرة!

كان يجب أن تحترم ذكائي وهنا تحديداً كان عليها أن ترحل!

يطل علينا رأسها الشاحب من بين السطور هامسة :

**\_لا نترك من نحبهم يغادرونا !!**

**صفت وجهها بدفة الكتاب صارخة:**

**"كاتب فاشل وبطلة حمقاء منصاعة!"**

**مزقت الأوراق ونشرت القصاصات غير آبهة بما ستخلفه من  
فوضى، أما فوضى أفكارى فتمور مورًا في تلافيف عقلي ساخطة.**

**\*\*\*\*\***



## اليوم .....

اليوم تبدل حال حِينًا، وكان تلك المقابر على تخومها  
زحفت إلينا، عند كل بابٍ لحد، وداخل كل بيتٍ كفن، باتت الوجوه  
كقطع من الليل، والقلوب وإن حضرت واجفة، الجميع هنا  
مرتابون... وكان بهم مس من جنون!

ظننتني وحدي بقيت، وأني لا زلت أتوكأ على بضع من  
أنفاس وأتزود ببعض من خفقات، هذه أُمي تتلفع السواد، وجدي  
يوم صلاةً لا أعلم كنهها ولا أفهم مقصدها، جارتني تدندن بألحانٍ  
شجية ثم ماتلبث أن تدوي من جوفها صرخاتٍ تهتز لها الأفئدة  
الحية..

بالأمس كان أخي يخيظ ثوبه ثم سرعان مايعيد فتقه!  
وأخيتي تحمل دميته وتلقيها في آتونٍ مضطرم.

كنت أنا مكبلة أحداث من يمر بمحاذاتي فلا يجيب، لم أستطع أن  
أبرح مكمني وإن أردت!...صخب احتل زوايا فكري، أحدهم اقترب  
لوهلةٍ فاستجلت أمره... ذلك الغريب تكسوه أظمار مهترئة  
وتحدوه هالة قاتمة، أزورت من وجلٍ عنه فما غاب وجهه عن  
ناظري، همهمت له فما ألقى بالألما أصدرت، حولي الوثاق أخذ

يشتد، كانت رائحة الدماء توضع فتفجر بجنابات الجسد ألف  
موت...موت...

اليوم... بأناة تتلاشى الصور ويتبدد البيت فيتبعه الحي، تبتلع  
الأكفان البعض وتتباعد المقابر ويعلو الصياح، لا أبصر أحدًا حتى  
دربي لا أستبينه، أطفو ككل من يجاورني، لا أعلم لهم عدد ولا  
إسم... ولا وجه، نُساق إلى حيث لم نبتغ، ويجلدنا نحيب لم نألفه،  
أحن إلى ما قبل أمسي حنين القفر لديمة المطر، أي أمس كان  
وبأي فاجعة قد أتى!

يسبل الأمس أحداثه القميئة على الذاكرة...

"ظللت سماءنا أسراب الغربان، فأرسلت على الحي حجارة من  
سجيل الطغاة، لتحيل طفولتنا لأثر بعد عين، وذكرى أليمة تشق  
صدور الأهل!"

الآن توقف الدهر، ثبتت الأرض وسكنت الأصوات، غضت الحياة  
الطرف عنا ولفظتنا ليلتقمنا الموت.

\*لم يُقتل الصغار؟...\*

صاحت جدتي بالجد، نكس رأسه لحيمة ليحيب الدمع، ثم مضى  
حسيرًا ناحٍ لحدٍ ولحدٍ... ولحد!!

\*\*\*\*\*

## فوضى .....

تعلم أنها أرهقته، أن تغض بصرها عن الجميع فلا ترّ  
سواه، تراقبه بعين أم تخشى على صغيرها، وتغار عليه بفكر أنثى  
تحترق ما إن يلوح بجواره ظل امرأة، حتى تلك الورقة المسجاة  
عليها كفه.. تغار منها! قلمه الذي تحتضنه أنامله برقة، هاتفه  
الذي لا يغادره أتراه أحق بقربه منها؟

من ينعمون برؤيته كل حين .. من يداعب مسامعهم صوته  
الحبيب.. لكم كانت تحسدهم، كانت تشتتم رائحة حزنه فتهرول  
ناحيته مستفسرة عما أصابه، فتصفع ملامحه الواجمة لهفتها،  
فتعود خائبةً مرتابة، لربما وجب عليها أن تهتم بكل ذلك الحزن  
الذي يملء أفئدة البرايا إلا حزنه... ما عاد بإمكانها تجاهل غضبه  
وزهده قربها ونفوره من وصلها..

\*\*\*\*\*

قتلى وجرحى بانفجار.....

اجتماع أمني لبحث تداعيات قرار.....

محكمة ( ) تصدر قرارًا باعدام ( ) ...

اعصار يجتاح ( ) وينذر بكارثة انسانية...

لا زالت الطائرات الحربية تقصف بلدة ( )... ولا زال الضحايا  
بازدياد ....

بوجه عابس وساعد متشنج تغلق التلفاز مدممةً:

" صه.. لا مزيد! "

\*\*\*\*\*

كطفل هارب من فوهة المدافع اعتادت أن تحتمي بحصن  
من أنفاسه، تسائل نفسها:

أتراني غدوت لا مبالية؟.. كيف ذلك وأنا أهتم بأدق تفاصيله  
وأخباره!

خائنة لقضايا الانسانية؟.. كيف وأنا التي جعلت منه قضيتي  
الأساسية!

غريبة عن أوطانهم؟ .. ما حاجتي بوطن وقلبه الأمان وهواه  
الهوية.

فتر إيماني وانصرف عن النهج القلب؟.. كيف وأنا مذ عرفته  
زهدت متاع الدنيا وما توقف اللسان عن الدعاء نهارًا وليل!

" هوني عليك" .. تحادث نفسها

\_اليوم سنلقاه وليحترق العالم ومن فيه وليبتلعه الدمار!

\*\*\*\*\*

\_ يا لهذه الفوضى !

= فوضى .. فوضى العالم تقصد؟

\_ وأي فوضى دونها أعظم!

=فوضاك، تلك التي لاحت ظلالها بنظراتك الزائغة، حروفك  
المفككة، أنفاسك اللاهثة، خفقاتك الوجلة، خطاك المرهقة..  
ومحياك الذي استشرى بين طياته القلق!

\_ كيف لها أن تكون أعظم؟

= صداها داخلي يكاد يخفي كل الأصوات، دجة تيهك تطفأ ضياء  
الشمس ونور القمر بالأحداق، حزنك يبتر الحياة!

\_ إذن، سأبتعد وأعيدي عهدك القديم مع الأيام، اصطفي بجوار  
الجمع جنباً لجنب مع من يظنون أنهم أحياء، أنا بحاجة ماسة  
للغياب، ولتعلمي أن فوضى العالم أشد عظم من سواها ..

= لن أفعل، تجاوزت الحياة وسأتجاوز ما ألم بي الآن، وابتعد قدر  
ما تشاء؛ عل الدعة تسكن درب عمرك .. عل الحبور يصافحك..  
ولن أبحث عنك، فقط كن بخير..

كن لأجل كلانا بخير..

\*\*\*\*\*

بعد الغياب تحرص على تدوين ملاحظاتها له.. والتي لاتعلم  
لهن هدف أو عدد .. حتى قبلةً توجهها لها لا تجد!

"" من مدة وأنا أداوم على مطالعة الأخبار، ماعدت اشعر بالملالة  
أو أزيح بصري عن الصور المؤلمة، أجلس أمام تلك المحطة  
بالساعات، أفكر بحلولٍ تصلح خراب هذا الكون!

دعني أخبرك بما يجول بتلايف العقل....

سننشأ عالمًا للصغار بعيدًا بعيدًا عن أشباح القتل والفقر  
والأمراض...

سنصلب الحرب ونرديها رشقًا بسهام آلام من تجرعوها  
لسنوات...

أما عن دعاة وكهنة وقساوسة الحكومات سنحرقهم وهشيم  
خطبهم العبثية الرعناء ...

سنجمع الساسة والأفاعي ونوطنهم بقعة من الأرض وصدقني لن  
يهلكوا فتغورهم جميعًا تحتوي ذات السم!

تبقى القادة... خبرت أن تجربة نقل رأس لجسدٍ أجلت، فالمتطوع  
انتابه القلق فانسحب \_ أفكر \_

ماذا لو قدمنا قادتنا قرابين للعلم، بشرط أن تزرع رؤوسهم  
لأجسادٍ من رعيتهم... أجساد أثقلتها العلل.. أو تلك التي بتر  
بطشهم أطرافها .. أو ربما الهزيمة من فرط املاقٍ زرعه  
بطرقات الوطن.

أرأيت.. أصبحت بفوضاهم أهتم، ما عدت لا مبالية !

بيد أنني في أكثر أوقاتي صدق.. عندما أوي لمهجي تتلاشى كل  
تلك الأفكار ليسكنني تساؤلي الوحيد والأبقى ..

**\*\* أترك غائبي بخير؟ \*\***

**أتعلم .. لازالت وستظل فوضاك الأهم . ""**

\*\*\*\*\*

## حوراء وطن .....

مع كل صباح تولد ذاكرة خالية الوفاض لعجوزٍ في الثمانين من عمرها، تقطن في قريةٍ نائيةٍ بإحدى دول المغرب العربي، الزمان عام ١٢٣٠ ميلادياً.

في ذلك البيت المتواضع الدافئ تسكن هذه السيدة المسنة وامرأة خمسينية ترعاها منذ سنوات غابرة، منذ كانت ذاكرتها عامرة، هي ليست ابنتها ولا قريبتها... بل غريبة تجمعها بها صلة روح ووتين قلب، مذ أصيبت المسنة بفقدان أجزاء من ذاكرتها بدأت السيدة الغريبة بطقسٍ يومي على مر سنواتٍ آنفة لم يتغير، تشرق الشمس فتهرول لحجرة السيدة العجوز، وبجوار فراشها الوثير تمكث متأملَةً محياها الوضاء المنير، لكم تذكرها بأحدهم! وكيف لا والدم ذاته سرى بعروقهما؟ تتناول كف النائمة الغض الرقيق، وتربت عليه بحنو وتقبله، وما أن تصحو من سباتها، وبوجهٍ يعلوه ظلال الوجوم والتعجب، تسأل الغريبة سؤالها المعتاد:

- من أنت؟! وأين هو...!؟!

لتبدأ الخمسينية بسرد بعض الذكريات على سمعها، فتنصت لها الأخرى مأخوذةً بنبرة صوت المتحدث الرقراق، ونظرة الحب والاشتياق التي تلوح في أحداقها بقوة ...



العام ١١٩٥... المكان معسكر جيش المسلمين والذي نصب على حدود حصن الأرك الواقع بين الأندلس وقشتالة.

أسدل الليل عباء دهمته فوق سماء المعسكر، وبدأ ضياء النار ينبثق في ظلمة الغسق لينير كل ما حوله، هنا في هذه البقعة لم تتوقف أصوات التكبير والتهليل منذ سويغات، ما إن وضعت الحرب أوزارها وغدا النصر حليف الثلة المسلمة، في معركةٍ اشتد وطيسها وجبروتها، ليتساقط الآلاف بين قتيل وجريح وأسير من الصليبيين بأيدي الموحدين، إحدى خيمات الأسر كان نزيلها مختلفاً، أميرة قشتالية محاربة عنيدة، اقتيدت مع قطع من الأسرى الذكور، وما إن حاولوا إجبارها على وضع بعض أسماها وكشف وجهها حتى تبين أنها فتاة بملابس محارب، بسهولة تعرف الجميع عليها فهي (ماريا) إحدى الأميرات في المملكة الصليبية، منذ الساعات الأولى لمجيئها وهي تثير القلق والسخط بنفس كل من يحاول التواصل معها، ترفض الطعام وتتغنت بالإفصاح عن أي معلومةٍ أو خبر، كان السؤال المطروح:

- أين تراه هرب ألفونسو الثامن وحفنة رجالات؟

لكنها كانت تكتفي بوابلٍ من اللعنات والنظرات الحانقة. لم يكن التعامل معها سلسلاً ولم يستطع أحد أن يروض تلك الظبية الجامحة، ذاع سيط عنادها وقوة شكيمتها وسلطة لسانها بين الجند والقادة، استثاره ما سمعه عنها ورغب بلقائها عسى أن يكون دواؤها لديه، كيف لا وهو الفارس المقدم الأشم والذي اشتهر بحلمه وذكائه وحسن تعامله، إنه الفارس العربي المغوار (شهاب الدين).

في تلك الأمسية يلج خيمتها بهدوءٍ بينما تنتصب هي واقفة لتبدأ منذ الوهلة الأولى حرب النظرات القاتلة، لا أبالغ إن أخبرتكم أن تلك العيون كادت تغادر محاجرها من فرط التحدي والكبر، رغم ذلك يضوع عقب انسجام عجيب، وكأن روحهما كانتا تتآلفان بطريقة أزعت كليهما فتفقا يكيلان على بعضهما نظراتٍ عدائية فجأة، بنبرةٍ متحديةٍ تَمتم:

- إذن، أنتِ هي الأميرة القشتالية المتتمرة؟!!

وأطلق ضحكة استفزت تلك المائلة أمامه بيد أنها آثرت الصمت وشخصت ببصرها بعيداً عنه بصلفٍ متعمدٍ.

- حقاً لم آتِ هنا لأجتر منكِ الكلمات أو لأرى أميرةً تظن أنه لم يخلق على هذه الأرض مثلاً! (استطرد مكملاً حديثه وهو يشيح بناظريه بعيداً).

بصوتٍ ثابتٍ تطغى عليه نبرة تهكمية دمدمت:

- لا أظنك من السذاجة لتأتي هنا لترى أنثى حسناء وتملأ عينيك بجمالٍ لم ترَ في بلادك مثله!

دون وعي منه انطلقت قهقهاته لهنيهةً قبل أن يوقفها فجأة وهو يدنو منها بحذر، وما إن أصبح قريباً منها همس بنبرةٍ متحديةٍ:

- وإن رآك الجمع كله حوراء من الفردوس أو فتنهم جموحك وجمالك، فأنتِ الآن تقفين أمام فارس لا يخطف لبه سوى التماع سيفه في ساح الوغى.

بدأت رياح الفضول والتعجب تؤز فكرها أزا فهو لا يشبهه سابقه. استدارت حيث باتت وجهاً لوجه معه، ساد الصمت بين كليهما

وكانت تلك فرصة سانحة ليقراً كل منهما الآخر في محاولةٍ لسبر أغواره، أخذت هي تتأمل ذلك الوجه بلامحه القوية وكأنه تمثال نحته أمهر فنان عرفتة البشرية، فمه الرقيق الثابت، لحيته الكثيفة المرتبة، انفه المستقيم الذي أقرأها خبر كبريائه واعتزازه بذاته، عند لفظ عينيه بدأت تتلاشى أجزاء من غضبها ومقتها، وما إن رست سفين نظراتها عند مقلتيه، حتى تردد صوت داخلها يخبرها أن هذا الرجل ليس كسواه، بالمقابل ظل هو يتأملها للحظاتٍ محاولاً إخفاء نظرة إعجابٍ لاح ظلالها في ركنٍ ما من فكره، ذلك الوجه المستدير الأبيض البض، وهذا الثغر الدقيق، تلك الحمرة التي بدأت تطفو على صفحة وجنتيها، ثم عيناها الرمادتان؛ فبؤبؤهما الثابت كجلمودٍ لا يهتز ولا يتصدع!

- ينقصهما شيء واحد. تتمم بهدوء.

تنبهت لما قاله فأردفت:

- ماذا تعني بعبارتك؟

أجاب:

- عيناك سناهما منطقي، وكأني أتأمل عينين من بلورٍ لا حياة بهما!

أجفلت لوهلة قبل أن تعود خطواتٍ للخلف متممة:

- لماذا أنت هنا وماذا تريد؟

يعاود الحديث بنبرة التحدي قائلاً:

- الكل يشتكى من عنادك و فظاظتك وسوء أدبك، فتحديتهم أنني  
قادر على أن أروضك!

يفغر ثغرها متعجبة وقد تمازج دواخلها أكثر من شعور، الغضب،  
الضحك، المقت والألفة...

- يالك من مغرور متعجرف! ارحل وإلا أريتك فيض من خبر  
ماوصلك. قالت الأميرة.

شهاب الدين بنبرة ودية:

- أراك صباحاً أيتها الأميرة القشتالية.

ماريا:

- إلى الجحيم أيها الفارس العربي!

في صباح اليوم الوافد اصطحبها إلى شاطئ نهر وادي  
(آنة) فقد كان حصن الأرك يقع عند أحد فروعه، بعد جهد مضن  
منه لإقناعها بمرافقته رضخت لأمره، ترجل كلاهما عن الفرس  
وعند أقرب بقعة من مياه النهر وقفا يتأملانه، جاء صوتها هادئاً  
هذه المرة وهي تسأله:

- ألا تخشى أن أهرب منك أو أن أقتلك؟

أجابها بهدوءٍ مماثل:

- لا، لا أخشى هروبك؛ فبأي حال كنت ستناين حريتك غداً فلقد قرر أمير المؤمنين أن يمن على أسراكم ويمنحكم حريتكم.  
بتهمك قالت:

- يا لركة قلوب المسلمين ورقى أخلاقهم!

ران الصمت على كليهما، أخذت تتأمل مياه النهر؛ فكانت فرصته ليتفحص وجهها على مهل، ذلك العنفوان الذي يتمتع بأحداقها، وتلك القوة السحرية التي تفيض بها روحها، حدث به ليحاول قدر الإمكان البقاء بقربها، قطع لحظة تأملها العميق صوته قائلاً:

- أما إن كنت تريدني قتلي فما نحن هنا وحدنا. واستل خنجره من غمده وقدمه لها مردفاً:

- خنجري هذا منذ هذه اللحظة لك، فافعلي به ما أردت.

دون أن تطيل التفكير تناولته بأنامل ثابتة، وهي تقول:

- هو اصبح ملكي الآن، وصدفاً لا يستثيرني قتلك، ولست ممن يقتلون للتلذذ فقط!

انقضى الوقت سريعاً وهما يتبادلان أطراف الحديث، حاول كل منهما جعله ودياً، إلا أن طبيعتهما المكابرة العنيدة كانت تتلاقى كل حين بنقطة خلاف...

- (حان وقت العودة) قال لها عائداً بخطاه للخلف، وقف بجوار فرسه ليجهزها للرحيل، فأخذت ماريًا تتأمله، تلك الشفتان اللتان كانتا بالأمس مزمومتين ومشدودتين قد انفرجتا قليلاً بنصف

استدارة بسمه، خصلات شعره الفاحمة الثائرة على جبينه العريض، حتى أنفاسه المتلاحقة هدأت لتغدو كما الأمواج الهادئة، كل ما يصلها منه الآن يشي بصفاء ونقاء ملائكي يناقض كل ما تعلمته عن المسلمين!

عاد كلاهما إلى المعسكر. كانت كلما تنهى لمسامعها صوت خطواتٍ منّت النفس أنه القادم، غير أنها لم تره بقية اليوم، غضبت منه ومن نفسها ومن ذلك الشعور المستجد الذي غزا قلبها، في خيمةٍ أخرى يجلس هو يصارع رغبةً تدفعه لرؤيتها.

كانت ليلة حافلة بالصراع والشوق والكثير من الحنق على ذواتهما.

في صبيحة اليوم التالي جمع الأسرى بما فيهم الأميرة ماريا وأبلغوا أن أمير المؤمنين أصدر عفواً عنهم و بإمكانهم العودة لديارهم، رمقته بنظرةٍ يخصلها بريقٍ حنون، ليبادلها بنظرةٍ مشابهة، تمت بصوتٍ خفيض:

- للمرة الأخيرة... اقرب!

شهاب الدين يقف على بضع خطواتٍ يقدم ساق ويرجع الأخرى، كائنان بشريان يتوق أحدهما للآخر بيد أن بينهما أخدود تلتهب به نيران الخطر.

عادت ماريا لقشتالة وعاد هو حيث الجيش وواجبه، بيد أنهما باتا مختلفين تماماً عما كاناه سابقاً بروحٍ أخرى وشعور مغاير، عجز عقلمهما عن التفسير كيف لسويغاتٍ تقضيها مع غريب أن تجعل

كل ما مر وسيمر بحياتك دونه كامدًا باهتًا؟! كل شيء حولهما  
بات قائمًا بالمقارنة مع ألق انبعث من تلك السويغات التي قضياها  
معًا!

بعد أيام عرض الصليبيون على المسلمين معاهدة صلح فوافق  
أمير المؤمنين آنذاك، وكانت مدة المعاهدة عشر سنوات من وقف  
القتال بين قشتالة والمسلمين، عند شاطئ نهر (آنة) اعتاد شهاب  
الدين قضاء بعض من وقته، كان يطيل النظر بصفحة النهر  
المتلألئة فيخيل له محياها الملائكي الجميل، صوت هدير الماء  
يسلي وجده الملتاع ويهدده، لوهلة تنهى لمسامعه وقع خطوات  
ليلتفت فيجدها ماثلة أمامه وابتسامة تعلو محياها، اقتربت منه  
ولازلت نظراتهما متشابكة تنضحان بالشوق واللهفة، يحادثها  
قائلًا:

- ها أنتِ ذا قد عدتِ!

- أعادني الشوق، حملني الحنين إلى هنا... (تخبره).

يستطرد مداعبًا:

- أراكِ غدوتِ عاشقة للنهر.

ليفتت ثغرها عن ابتسامة خجلى وهي تومئ برأسها هامسة:

- لن أنكر، هذا النهر غسل روحي مما علق بها لسنوات دون أن  
ألمسه، لن أبالغ إن أخبرتك أنه أحب بقعة بوطني.

شهاب الدين:

- أما أنا فباتت هذه البقعة وطني!

أو تعلمين أحداً تلتهم بهما الروح، أصبحت الآن حية!

بدأت نظراتهما كأنها انعكاساً لما يصول ويجول دواخلهما، لملم شهاب الدين شعث أفكاره وطرح فكرةً عليها تلقى لدي ماريًا الاستحسان فتوافق:

- ما رأيك لو ننبد كل هذا خلفنا ونتجاوز تلك العصبية والعداوة بين الفريقين وتصبحين زوجتي وأنا زوجك؟

ازدردت لعابها بصعوبة وتوسدت الصمت لحينةً قبل أن ينبعث صوتها واهناً مخضباً بمرارة الحقيقة:

- أنا الأميرة ماريًا قشتالية العقيدة والانتماء، دراستي دينية كاثوليكية، فكرتنا الأساسية التخلص من المسلمين وطردهم خارج البلاد، لازلت أو من بعقيدتي، رغم انصرافي منذ عرفتك عن خدمتها، ماتطلبه إن لم يكن محالاً فهو ضرب من جنون!

بيأس يتمم شهاب الدين كلماتٍ بالعربية : (لكني أحبك)؛ فتبتسم وهي تردف:

- أعرف القليل من العربية؛ عكفت على دراستها منذ زمن، واشتدت حماسي لتعلمها بسرعة مذ عرفتك.

تتمم هي الأخرى بكلماتٍ عربية (أنا أيضاً أحبك).



وسط ذهولٍ اعتراه وخرسٍ أصاب لسانه ظل يحدق بها بكل جوارحه، إلى أن ابتعدت ورحلت مجددًا.

كانت هزيمة الأرك تورق ألفونسو وتسلبه راحته، وتثير داخله براكين الانتقام والثأر؛ فانتهز الهدنة ليعد عدته ويحصن قلاع بلاده ويوحد الأمصار الصليبية المتنازعة، حاول نزع فتيل الفرقة ليصبحوا على قلب رجل واحد ليتحين الفرصة، حتى نقض العهد وأغار على بلاد المسلمين، كانت ماريا تبحث بين تلك الوجوه عن وجه واحد، في معسكر أقامه الصليبيون عقب إغارتهم على المسلمين جمع الآلاف من الأسرى، ينبئها قلبها أن فارسها بينهم ولسانها يلهج بالصلاة أن لا يكون مكروهاً قد أصابه، لمحت وجهه الحبيب، فتسارعت أنفاسها ودكت النبضات المججلة كيائها دكًا، ولأنها الأميرة والكل لأوامرها يخضع أمرت بعض الجنود بإحضاره حيث أشارت لهم، صحبتته بعيدًا عن العيون وعلى حدود المعسكر أخرجت خنجره من بين طيات رداؤها، وأودعته كفه هامسةً له:

- انج بحياتك واهرب.

تعنت بالبداية قائلًا:

- أو تعلمين عني ذلك، لست ممن يلوذون بالفرار كالجبناء!

من جديد ولكن هذه المرة ترتجيه بصوتٍ ضعيف:

- لم تعد حياتك وحدك، هي حياتي أيضًا، أترتضي لي الموت؟!!

صاح مستنكرًا:

- لا، ولكن أخشى أن يصيبك سوء!

صاحت بوجهه :

- إن أصابك سوء أصابني ضعفه. اذهب وعدني ألا تعد!  
نظر لها نظرة منكسرة ووعداها ألا يعود، وشق طريقه بثقل حزنه  
ورحل...

كانت هذه النهاية التي تختم بها الخمسينية القصة للسيدة  
المسنة، بيد أن النهاية الحق ظلت حبيسة ذاكرتها لأعوامٍ  
وأعوام...

في حجرتها تفترش مضجعا وتكمل القصة كما رأتها رؤى العين  
وعايشتها، فشهاب الدين نكت بوعده لماريا وعاد حيث كان  
ينتظره بطش جنود الصليبيين، ذاع خبر مفاده أن فارساً من  
المسلمين حاول اقتحام المعسكر فتصدى له الجند وأجهزوا عليه  
دون رحمة!

ماريا تتحسس طريقها إلى حيث ترقد تلك الجثة، نسام تشابه نسام  
ليلة لقائها بشهابٍ تداعب روحها، رائحة عطره تفوح لتعانق  
روحها، وجلّ يسرى بجنباتها كالسم الزعاف يقتلع الحياة عنوةً  
من داخلها.

- أيها الرب، لا تفجعني بموته!

أيها الرب، رفقا بقلبٍ مترع بحبه!

لكن عبثًا كانت صلاتها فها هو جسده مسجىً ساكنًا فوق ثرى  
وطنها، وطن سرق منها الحياة وسلبها روحها وأرداها جثةً  
حية...

لم تستطع لسنوات التأقلم مع كل ذلك؛ عزمت العزم ورحلت لبلاد  
المغرب...

حدثها ذلك اليوم عند النهر عن أمه التي لا معيل لها ولا سند  
إلاه، بحثت كثيرًا حتى وصلت إليها، ذلك البيت الذي ولد وترعرع  
به شهاب الدين بات وطنها، رهنت ماتبقى من سنوات عمرها  
لتنزل جوار والدته وبكنف وطنٍ ل طالما احتضنه...

**فقط حيثما وجد الحب كان الوطن!**

\*\*\*\*\*

## مجرد هذر .....

- حسنًا فلتبدأ...

- أمتأكدة أنتِ؟

- بلى، وماذا سأخسر؟!

\*\*\*\*\*

مر الكثير منذ بدأ، بيد أنه حتى الآن ما ظهر، يعتريني القلق حينما أفكر بما آل إليه حاله، ربما ابتلعتة أمواج هادرة، أو أخفته دياجير دهماء، أو ربما أحرقتة نيرانٌ هناك مستعرة، أو ربما صادف أحد تلك المسوخ فهاله منظره... المهم أنني أكاد أجزم أنه ليس بخير، لا أعلم ما أغراه ليفعلها! ربما أحببته أكثر مما يجب ووهبته ما لا يحق لأحد، وربما ساقه الفضول ليعرف أكثر، فالحق يقال أنا أرهقتة!

\*\*\*\*\*

- أتؤمنين بالأساطير؟

- أو من بها لا، ولكنني أتمنى أن تكون تلك الأسطورة حقيقة!

- أي نوع من الأساطير تلك إذن؟  
- أسطورة شقيق الروح، أن كل روح ذات زمان قسمت نصفين،  
كل نصف في جسد.

- أتقصدين روحًا تحيا بجسدين؟!!

- تمامًا هذا ما قصدته، تمر الحيوانات تبعًا، قد تلتقي شقيق الروح  
لوهلة، تكون تلك اللحظة وزخمها وصداها كفيلة بوهبك شُعلة  
البقاء، لجعل حياتك ذات معنى، ستتذوق الحب بطريقةٍ مختلفة لا  
تشبه أخرياتها والتي حتمًا ستعايشها.

- هل قابلته؟!!

- وهل يصدر هذا الكلم لأي كان؟! أما ترى أن خلفه مغزى؟

- وماهي الأسطورة؟

- حسنًا، لا أعلم ماهيتها، ما أعلمه أننا سنعايشها، ربما بأجسادٍ  
أخرى، وذاكرة من زمنٍ آخر...

\*\*\*\*\*

أزيز باب حجرتي يخبرني بقدم أحدهم، وصوته المنبعث  
من ثغره أكد ذلك، أنتصب تاركة سريري المرتب، بخطى ثابتة،  
وعيونٍ ثاقبة، وبسمة أفر ثغري مفتعلًا إياها، أتجه للحجرة  
المنشودة، كنت أعلم أنه يومٌ مختلف، وأنه عاد من رحلته، عبق  
عبيره يملأ الأجواء، كذا نبرة صوته والتي أميزها وإن كثرت  
الأصوات، حرصت على أن أردي ثوبي الأبيض، وتركت خصلات  
شعري منسدلة فوق كتفي الغضين؛ هكذا يحبه، مذهري وثوبي

الناصح كانا يجبرانه على التبسم مع تمتمة خفيضة يخبرني بها  
كم أبدو كملاكٍ أطل من العلياء!

\*\*\*\*\*

- تعلمين أن أمرك يهمني، وأن لا أحد مثلك!
- ربما أعلم، رغم أنك شحيح الحديث، حتى إذا ما بحت، أخذ  
بوحك أكثر من تأويل، حيناً أفنده بالعقل فيؤلمني، وحيناً آخر  
أؤوله كما أرجو فيسعدني.
- لا عليك، أوليه كما يريد القلب، فكل ما أصبو إليه أن تصبحي  
بخير.
- وأنا لم أكن بخير كما الآن، صدقني بقربك غدوت الأفضل.
- اليوم مختلف، سأسبر أغوارك، سأقرأ صمتك وأترجم خلجاتك،  
سأحادث عقلك، عني أستطيع فك أسرك وإنقاذك.
- أتعدني أن لا ترحل؟
- أوتظنين أنني قادرٌ على ذلك؟ اطمئني لن أرحل.
- حسناً فلتبدأ...
- أمتأكدة أنت؟
- بلى، وماذا سأخسر!؟

\*\*\*\*\*

تَبًا كم تبدو تلك الردهة أطول من العادة! تلك الأصوات، الدندنات،  
والصرخات، البعض غاضب، والبعض يبكي، والكثير صامت، من  
جديد وجهًا لوجه أمام باب حجرته، طرق خفيف بأنامل من  
يرافقتي، ويشرع الباب، أمامي أراه، هذه المرة يفتر ثغري عن  
بسمة حبورٍ يقطر من جنباتها عقب الاشتياق، أتراه داعب روحه  
واستشعره؟!!

أواجه عينيه، أبجديتهما باتت ساجية ساكنة، هناك شيء فُقد،  
كنت أعلم أن شقيق الروح ما إن سكن روحي احترق، ماكان يجب  
أن تسبر أغواري وتكتشف ما كنت عنك أورايه وأرمسه، ابتلغته  
أمواج وجلي، وأخفته دياجير وهني، وهاله ذلك المسخ بداخلي،  
فغدا شخصًا مختلفًا!

\*\*\*\*\*

- من أنت؟

- ليتني أعرف! ربما لاشيء مختلط بالكثير من العدم، ربما طيف  
استتر بعباءة جسد، ربما شيطان على بني جلدته تمرد، أو ملاكًا  
قد أذنب، صدقًا لا أعلم!

- اذكري بضع كلماتٍ إليكِ الأقرب.

- ولادة مميتة، أنفاس خانقة، روح مصلوبة، واقع أرفضه، أحلام  
مبتورة، موت لا يكتمل، دماء.. نصل.. أكره البشر!

- لماذا أنتِ هنا؟

\_ لأنني أرفض هناك، كثرت مني اللاعات...

- أتحبين هذا المكان؟

- مادمت شقيق الروح فجحيم هنا غدا جنان.

- ماذا لو أنا ذهبت؟

- وماذا بعدك سيبقى؟! أترك لم تعي بعد؟! أنت الأنفاس...

\*\*\*\*\*

في حجرته تحوم عيناه بكل ركن إلا حيث أقف، يتنحج ذاك القابع على مقعده، سكنت الروح من نظراته طعان الجزع، يقلب الناظر لي بملفٍ بين كفيه، وينتقل نظره ما بين وريقاته ووجهي، وعيناي متشبثةً بشقيق الروح الذي انصل من هالته الشغف، أهمس له باسمه فيتجاهلني وكأني العدم، يبادل الآخر أطراف حديثٍ مقتضبٍ قاصداً أن أسمع، ينهيه متمماً لي كوني بخير، وبحذرٍ وهدوءٍ للباب يتجه، أقبض على ساعده، فيقبض مرافقي بقسوةٍ على ساعدي، محذراً إياي بكلماتٍ كما الصخر، لهنيهةً ينظر لوجهي الذي تخضب بالجوى وتكدر بالحزن، يربت على كفي وبتودة يفلته عن ساعده... ويرحل تماماً كما الجمع فعل!

\*\*\*\*\*



- الحالة التي أمامك سيدي، كانت تخصني، غير أن ظروفًا طرأت  
تجبرني على الرحيل من هنا...

- جيد الملف أمامي وقد تصفحت ما سطر به، أعدك أن أعني بها  
كما يجب...

- حسنًا حان الوقت لأذهب -يتمتم لها- كوني بخير...

\*\*\*\*\*

رحل تاركًا شقيقة الروح وحيدة تتقاذفها رياح الهذيان  
والفقد، بأي ذنب يحاكمنا البشر على أقدارٍ ليس لنا بها يد؟

أو يظن أنني سأركض خلفه؟! أو سأستجديه أن لا يذهب؟ أتراه  
يراني كما الجميع خطرًا؟ أو أنه صدق أن مس من الجنون قد  
أصاب العقل؟ أخبرته... جئت هنا لأنني لا أشبههم، وأنني لم أكن  
يومًا مثلهم، وعدني بالبقاء، لكنه بوعدته نكث... آلة  
حادة... دماء... الكثير من الدماء...

(أخبروه أنني أنتظره هناك، حيث كل شيء بالإمكان)...

\*\*\*\*\* تمت بحمد الله \*\*\*\*\*

